**السرّ العظيم**

يختصر القديس بولس قضيّة الحياة العيليّة بعبارة **"إن هذا السرّ لعظيم!"** (أنظر أف 32:5). عندما يكتب في رسالته إلى الأفسسيّين عن هذا "السر العظيم"، وإن كانت تعود جذوره إلى سفر التكوين وإلى كلّ تقليد العهد القديم، فإنه يقدّم تنظيماً جديداً سوف تتوسّع فيه سُلطة الكنيسة التعليميّة في ما بعد.

 تعلّم الكنيسة أن الزواج، كسرّ توافقٍ بين زوجين، هو "سرٌّ عظيم"، لأن فيه يعبَّر عن حبّ المسيح الزوجيّ لكنيسته. كتب القديس بولس: "أيها الرجال، أحبّوا نساءَكم كما أحبَّ المسيحُ الكنيسة: لقد بذل نفسه لأجلها ليقدّسها ويطهرَها بغسل الماء وبالكلمة" (أف 5: 25-26). يتحدّث الرسول هنا عن المعموديّة التي تفصّلها الرسالة الى الرومانيّين بإسهاب، واصفةً إياها كمشاركة في موت المسيح لنيل حياته (أنظر روم 3:6-4). بهذا السرّ يولد المؤمن إنساناً جديداً، لأن للمعموديّة السلطان بأن تمنح حياةً جديدة، حياة الله نفسها. إن سرّ الإله- الإنسان يختصر، نوعاً ما، في الحدَث العماديّ. يقول القديس إيريناوس لاحقاً، ومعه عددٌ من آباء الكنيسة في الشرق والغرب: "إن يسوعَ المسيحَ ربَّنا، ابنَ الله العليّ، صار ابنَ الانسان لكي يصبح الإنسانُ بدوره ابنَ الله"[[1]](http://hobwahayat.com/index2.php?sscid=24" \l "_ftn1" \o ").

 إن العريس إذن هو الله نفسُه صار إنساناً. في العهد القديم، يعتلن الربُّ عريساً لإسرائيل الشعب المختار: إنه عريس حنون ومتطلّب، غيورٌ وأمين. إن كل خيانات إسرائيل وهروبه وعباداته الأصنام التي وصفها الأنبياء بكل مأساوية وتعبيريّة لم تستطع أن تطفىء الحبَّ الذي به الله

**العريس** "أحبَّ إلى الغاية" (أنظر يو 1:13).

 إن تثبيت وتمام الشركة الزوجية بين الله وشعبه قد تحقّقتا في المسيح، في العهد الجديد. فالمسيح يؤكد لنا أن العريس ما دام معنا (أنظر متى 15:9). إنه معنا جميعاً، إنه مع الكنيسة. و**الكنيسة تصبح عروساً**: عروس المسيح. وهذه العروس التي تتكلّم عنها الرسالة إلى الأفسسيّين حاضرةٌ في كلّ معمّد، وهي على مثال شخص حاضرٍ تحت نظري عريسه. إنه "أحبّ الكنيسة: لقد بذل نفسه لأجلها... [إذ كان يريد] أن يزفَّّّّّّها إلى نفسه كنيسةً مجيدةً، لا كَلَفَ فيها ولا غصنٌ ولا شيءٌ مثل ذلك، بل مقدَّسةٌ، ولا عيبَ فيها (أف 25:5، 27). إن الحبَّ الذي أحبَّ به العريسُ الكنيسةَ إلى الغاية، هو من العظمة بقدرٍ حتى إنها تتجدّد دوماً في القداسة بقدّيسيها، وإن كانت لا تزال بعد كنيسة خطأة. إن الخطأة "والعشارين والزواني" مدعوّون هم أيضاً إلى القداسة، على حدّ ما يصرّحه المسيح نفسه في الإنجيل (أنظر مت 31:21). إنهم جميعاً مدعوّون الى أن يصبحوا الكنيسة الممجّدة والمقدّسة والطاهرة. "كونوا قديسين، لأني أنا قدّوس" (لا 44:11= 1 بط 16:1).

 تلك هي أسمى أبعاد "السرّ العظيم"، والمعنى العميق للموهبة السريّة في الكنيسة، وأبلغ معنىً للمعموديّة والإفخارستيّا. إنها ثمار محبّة العريس الذي أحبَّ إلى الغاية، حبّاً يتوسّع على الدوام ويمنح البشر مشاركة دائمة النمو في الحياة الإلهيّة.

 بعد أن قال: "أيها الرجال، أحبّوا نساءَكم" (أف 25:5)، يضيف القديس بولس حالاً، وبقوةٍ أعظم: "فكذلك يجب على الرجال أن يحبّوا نساءَهم كأجسادهم الخاصة؛ من أحبَّ امرأته، أحبَّ نفسه. فإنه ما من أحد أبغض قطُّ جسدَه الخاص؛ بل إنما يغذّيه، ويعتني به، كما يفعل المسيح بالكنيسة: أوَلسنا أعضاءَ جسده؟" (أف 28:5-30). ويحرّض الرسول الزوجين قائلاً: "كونوا خاضعين بعضكم لبعضٍ في مخافة المسيح" (أفس 21:5).

 ذلك هو، بالتأكيد، تعبيرٌ جديدٌ عن الحقيقة الأبديّة الخاصّة بالزواج والأسرة، على ضوءِ العهد الجديد. والمسيح أوحى بها في الإنجيل، بحضوره في قانا الجليل، وبذبيحته على الصليب، وبأسرار كنيسته. وهكذا يجد الزوجان في المسيح **مرجعاً لحبّهما الزوجيّ**. وفي حديثه عن المسيح عريس الكنيسة، يستند القديس بولس بطريقة مماثلة إلى الحبّ الزوجيّ، ويعود إلى سفر التكوين: "لذلك يترك الرجل أباه وأمّه، ويلزم امرأته، فيصيران كلاهما جسداً واحداً" **(24:2= أف 31:5).** هذا هو "السرّ العظيم" المتمثّل في الحبّ الأزليّ الكائن منذ بدء الخليقة، والمعلَن في المسيح، والذي عُهد به إلى الكنيسة. ويردّد الرسول: "إن هذا السرّ لعظيم: أقول هذا بالنسبة إلى المسيح والكنيسة" (أف 32:5).

 لا يمكننا إذن أن نفهم الكنيسة كجسدٍ سرّيّ للمسيح، وكعلامةِ عهدٍ بين الانسان والله في المسيح، وكسرٍّ شامل للخلاص، دون أن تستند إلى "السرّ العظيم"، في علاقته مع خلق الإنسان، ذكراً وأنثى، ومع دعوة الاثنين إلى الحبّ الزوجيّ، إلى الأبوّة والأمومة. إن "السرّ العظيم"، الذي هو الكنيسة والبشريّة في المسيح، لا وجود له من دون "السرّ العظيم" الذي يعبّر عنه بكون الاثنين يصيران "جسداً واحداً" (أنظر تك 24:2= أف 31:5- 32)، أي في حقيقة واقع الزواج والأسرة.

 إن الأسرة نفسها هي سرّ الله العظيم. إنها، "ككنيسة بيتيّة"،عروس المسيح. إن الكنيسة الجامعة، وفيها كلَّ كنيسة خاصّة، تظهر، أكثرَ مباشرةً، عروسةً للمسيح في "الكنيسة البيتيّة" وفي الحبّ المُعاش فيها: الحبّ الزوجيّ والحبّ الأبويّ والأموميّ، والحبّ الأخويّ، وحبّ جماعة من الأشخاص والأجيال. وهل من الممكن أن نتصوّر الحبّ البشريّ بدون العريس، وبدون الحبّ الذي هو، أولاً، أحبّ به الى الغاية؟ والزوجان، هما أيضاً، يستطيعان أن يحبَّا "الى الغاية"، إذا ما شاركا في هذا الحبّ وهذا "السرّ العظيم": فإمّا يشاركان في هذا الحبّ، وإمّا فهما لا يفقهان في العمق ما هو الحبّ وكم متطلّباته هي جذريّة. وفي هذا، بلا شكّ، خطرٌ داهم وفادح.

 إن تعليم الرسالة إلى الأفسسيّين يدهش بعمقه وسلطته الخُلُقيّة. وبإشارته إلى الزواج- ومن ثمّ إلى الأسرة- كأنه "السرّ العظيم"، بالنسبة الى المسيح والكنيسة، يعود الرسول بولس فيردّد مرّة أخرى ما سبق وقاله للأزواج: "...فليُحبَّ كُلُّ واحد منكم امرأته كنفسه". ويضيف قائلاً: "وَلْتهَب المرأة رجلها" (أف 33:5) الهيبة والاحترام لأنها تحبّ وتعرف أنها محبوبة. وبفضل هذا الحبّ، **يصبح الزوجان عطيّة متبادلة**. في الحبّ يكمن الاعتراف بكرامة الآخر الشخصيّة وبفرادته التي لا مثيل لها: في الواقع، إن الله اختار كلاًّ منهما، بصفته كائناً بشريّاً، من أجل ذاته[[2]](http://hobwahayat.com/index2.php?sscid=24" \l "_ftn2" \o ")، ما بين خلائق الأرض. ومع ذلك، فإنَّ كلَّ واحد بفعل إرادةٍ واعٍ ومسؤول يهب ذاته هبةً حرَّةً للآخر وللأولاد، الذين يمنحهما إيّاهم الربّ. لذلك يتابع القديس بولس تحريضه، اربطاً إيّاه بطريقة معبّرة بالوصيّة الرابعة: "وأنتم، أيها الأولاد، أطيعوا والديكم، في الربّ: فإن ذلك عدلٌ. "أكرم أباك وأمك"- تلك هي الوصية الأولى التي أنيط بها وعدٌ-: "لكي تصيب خيراً، وتطول أيامك على الأرض". وأنتم، أيها الآباء، لا تُحنقوا أولادكم، بل ربّوهم بالتأديب والموعظة، في الربّ" (أف 1:6-4). فالرسول، إذن، يرى في الوصيّة الرابعة التعهّد الضمنيّ بالاحترام المتبادل بين الرجل والمرأة، وما بين الوالدين والأولاد، ويجد فيها هكذا **مبدأ التماسك العيليّ**.

[[1]](http://hobwahayat.com/index2.php?sscid=24" \l "_ftnref1" \o ") S. Irénée, Adversus haereses III, 10, 2: PG 7, 873; SCh 211, pp. 116-119; S. Athanase, De Incarnatione Verbi, n. 54: PG 25, 191-192; S.Augustin, Sermon 185,3: PL 38, 999; Sermon 194, 3,3: PL 38,1016.

[[2]](http://hobwahayat.com/index2.php?sscid=24" \l "_ftnref2" \o ") أنظر الدستور الراعويّ (الفرح والرجاء)، الرقم 24.